جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان - قسم التاريخ
أستاذ المادة: د/ سمير مزرعي السنة الثانية ليسانس

المحاضرة الثالثة: مصادر تاريخ الجزائر القديم

1- الآثار:

بدأ الاهتمام بالأبحاث الأثرية في الجزائر أثناء فترة الاحتلال الفرنسي، فقد كانوا مهتمين بهذا الميدان نتيجة الظروف التي تطلبتها حركات الكشوفات الجغرافية التي واكبت حركات الاستعمار والهيمنة الأوروبية على المستعمرات والأقاليم الحضارية التي يقع معظمها جنوب وشرق حوض البحر المتوسط، وكانت هذه الحركات تهدف إلى التعرف على ماضي الشعوب وثقافاتهم وخصوصياتهم، وكانت الجزائر ضمن الدول المستهدفة بهذه الأبحاث نظرا لتراكم الرصيد الحضاري على مر الأزمنة والعصور.

لقد عملت إدارة الاحتلال على استعمال ضباط الجيش المختصين في المسح الطبوغرافي، بحيث كانوا يقومون بوصف وتدوين كل البقايا الأثرية أثناء قيامهم بأعمال المسح في المواقع الأثرية باستعمال طرق منهجية حديثة مبتكرة، تقوم على الوصف الموضعي الدقيق للمواقع الأثرية والبقايا، والرفع الأثري، والرسم التشخيصي والمعماري، ثم التصوير الشمسي للمعالم والشواهد، إلى غير ذلك من التقنيات الأثرية الحديثة.

ولعل أشهر الحملات التي نظمها العلماء والضباط المختصون الفرنسيون في هذا المجال ما أسموه بحملات "الكشف العلمي للجزائر" (Explorations Scientifiques de l'Algérie) التي بدأوا في تطبيقها أواسط القرن التاسع عشر، وقد جادت هذه الحملات الاستكشافية على متاحفهم بكثير من الكنوز الأثرية الثمينة مثل: النقود الذهبية والفضية، والأواني الخزفية العالية الجودة، والتماثيل النادرة لمختلف المخلفات البشرية الناتجة عن تعاقب مختلف الحضارات التي قامت ونشأت على تراب الجزائر.

2- الحفريات:

يعد علم الآثار من العلوم المساعدة والمهمة في التأريخ لتاريخ الجزائر في مختلف المراحل، خصوصا في عصر ما قبل التاريخ إلى غاية العصر الحديث، إذ يكون بإمكانه تقديم دلائل علمية تؤكد أو تفند الروايات التاريخية التي تزودنا بها المصادر الكتابية، فالحفريات الأثرية كشفت لنا عن كثير من الأسرار التاريخية التي كنا نجهلها، فمثلا نجد بحيرة "كيرار" (Lac Karar) التي كانت عبارة عن مستنقع واقع شمال ولاية تلمسان، وتوضح الخريطة التي أرودها (Marcellin Boule) في كتابه أنها تقع على بعد 2 كلم جنوب شرق مدينة الرمشي التي كانت تعرف قديما بـ (Motagnac)، وتتوسط هذه البحيرة كل من مدينة الرمشي وبلدية سيدي أحمد ودائرة الحناية وبلدية زناتة، واعتبرت هذه البحيرة مخزن مائي طبيعي للمياه الصاعدة، وبعد أن قامت السلطات الفرنسية بتجفيفه أثناء عملية استصلاح المناطق السهلية القريبة منه لصالح المعمرين الفرنسين سنة 1894م، ظهرت على السطح أدوات حجرية ومستحثات حيوانية لفيلة أطلسية ودببة منقرضة، وأفراس نهر بيضاء، ووحدي القرن، والثيران والخيول، وأدوات حجرية مثل: الفؤوس اليدوية المصنوعة من الكوارتز والصوان المتبلر، إضافة إلى شظايا حادة ونصف مستديرة، وقد أجريت أبحاث على هذه المكتشفات من قبل عالم الآثار الفرنسي (م. بولي) (M. Boulè) سنة 1899.

3- النقوش الأثرية:

تعد النقوش الأثرية ثاني المصادر التاريخية، وهي مصادر علمية أكثر دقة من المدونات التاريخية، إذ تعكس حقيقة الوجود البشري في المنطقة التي يريد الباحث دراستها، وتتمثل النقوش في الكتابات والرسومات الصخرية والجدرانية والرسومات الحائطية، وفي الأواني

المنزلية والمعادن كالبرونز والفضة والحديد والخشب وغيرها، وهناك نقوش بارزة ونقوش غائرة، ومن النقوش الأكثر انتشارا في بلاد المغرب هي النقوش الدينية التي تكشف عن معتقدات مجتمع بلاد المغرب القديم، والنقوش الجنائزية التي تكشف عن طقوس وطرق الدفن وتفسر نظرة مجتمعاتهم إلى الموت والآخرة، فقد وجدت مثلا نقوش بونية نذرية في معبد الحفرة بقسنطينة تؤكد انتشار عبادة الآلهة الفينيقية القديمة بين سكان بلاد المغرب، فتظهر النقيشة الأولى نص بوني قديم يقدس ويعظم الإله "بعل حامون" فهو رب الأرباب عند الفينيقيين والبونيين وسيد السماء والعواصف والخصوبة، وغالبا ما يظهر الإله "بعل حامون" في شكل صورة شيخ مسن يتكئ على كبش أقرن، أو شيخ يجلس على كرسي العرش ويمسك بالصولجان بيده.

4- النقوش اللاتينية والإغريقية (inscriptions/epigraphie):

وهي عبارة عن لوائح لنقوش دونت على الألواح الحجرية أو الرخام، وهي إما نقوش ذات طابع ديني أو جنائزي، أو ذات طابع رسمي أو شخصي، وهي مؤرخة فيما بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن الرابع ميلادي، كتب جلها باللغة اللاتينية، مقابل عدد ضئيل من النقوش المدونة بالإغريقية، وقد تم جمعها في بادئ الأمر من طرف علماء النقوش الألمان العاملين في أكاديمية (برلين) التي تأسست سنة 1847، بحيث أسندت هذه المهمة في البداية إلى العالم "قوستاف ويلمانس" (G.Willlmans)، لكنه توفي قبل أن ينهي عمله، فخلفه في هذه المهمة العالم (Theodor Mommsen) تيودور مومسن وغيره منذ سنة 1863، وقد عمل هو وفريقة على جمع مجموعة من النقوش اللاتينية القديمة في مدونة عرفت باسم "مدونة النقوش اللاتينية" (Corpus Inscriptionum Latinarum) والتي يرمز لها (CIL)، وقد نشر هذا العمل سنة 1881، وهي تشكل مصدرا موثوقة كمادة علمية مخبرية لتوثيق وكتابة تاريخ بلاد المغرب القديم.

تصدر هذه المدونة في مجلدات لا زالت تصدر إلى غاية اليوم، ولقد عمل كل من (مومسن وويلمانس) بتدوين نقوش بلاد المغرب في المجلد الثامن بداية من النقيشة (1 إلى غاية 10988)، ثم أضيف لها ملحق فيما بعد يضم أربعة أجزاء تحوي النقوش ما بين (10988 إلى غاية 28085) كلها تخص تاريخ بلاد المغرب والشمال الإفريقي، وتلت هذه المجموعة، مجموعة ثانية تضم إصدارات عامة ومكملة حول نقوش الجزائر والأقاليم المغاربية من بينها: "سجل النقوش اللاتينية للجزائر" (Inscriptions latines de l'Algerie) التي جمعها "ستيفان غزال" (St.Gsell) في الجزء الأول سنة 1922، وقد نشر أيضا سجل نقوش أخرى كل من"ستيفان غزال و ألبيرتي" (St.Gsell et Albertini) في الجزء الثاني ما بين سنة 1922-1976، كما أن هناك سجلات أخرى نشرها عالم النقوش الألماني "جورج هانس فلوم" (G.H.Pflaum) سنة 1957م.

5- المؤلفات والكتابات التاريخية:

1.5- الكتب التاريخية العامة:

1.1.5 هيرودوتوس (هيرودوت) (484 – 420 ق.م):

هو مؤرخ يوناني الأصل عاش في القرن الخامس قبل الميلاد أصيل مدينة (هَلِكَرْنَسُوسْ- Halicarnassus) في الساحل الجنوبي الغربي لآسيا الصغرى ، يعتبر كتاب "التاريخ" لهيرودوت من أقدم المصادر التي تتحدث عن شعوب البحر المتوسط خلال القرن الخامس قبل الميلاد، ونظرا لأهميته فقد ترجم إلى العديد من اللغات، ونشرت حوله العديد من الدراسات، ورد كتابه "Historia- التاريخ" في تسعة أجزاء، خصص الأربعة الأولى منها للشعوب الإغريقية غير الإغريقية وتحديدا الفرس، غير أن ما وصلنا من أخبار عن المنطقة الجنوبية من البحر المتوسط أي مصر وبلاد المغرب التي كانت تعرف بليبيا أو بلاد اللوبيين، كان قليلا نوعا ما إذا ما حاولنا مقارنته بما نقله لنا عن أخبار الفينيقيين والفرس، فنجد بعض المعلومات المتعلقة ببلاد المغرب (شمال إفريقيا) الواردة في الكتاب الرابع الذي حققه

(ستيفان غزال - St.Gsell)، حيث تطرق فيه للحملات الفارسية على شرق لوبيا خلال حكم الملك "داريوس-Darius" ، والمعلومات التي تهم منطقة (قورينة) والاستيطان الإغريقي بها، كما استعرض خصائص منطقة السرت الصغير والكبير وظهيرهما، وذكر عددا من القبائل مبرزا نمط عيشها وتقاليدها، كما تطرق للوبيين بالقسم الساحلي من (البيزاكيوم- Byzacium) وجزيرتي (جربة -Girba) و (قرقنة –Cercina Insula) ، كما اهتم في الكتاب السابع بأولى المجابهات بين القرطاجيين والإغريق بـ (صقلية) سنة 480 ق.م.

إن الأساس الذي استند إليه هيرودوت في تاريخه هو الملاحظة والبحث والاستنتاج وتحليل الوقائع، فهو يعتمد على المعاينة في جمع أخبار الشعوب والمجتمعات وملاحظة عاداتهم وتقاليدهم وتصرفاتهم، أو يعتمد في بعض الأحيان على جمع الروايات التي يأخذها عن محدثيه، وهذا ما يمكن أن نفهمه من قوله: "يقول الفرس"، "يقول المصريون"، "يعارض الأثنيون"...إلخ.

2.1.5 بولبيوس(Polybius) (200- 120 ق.م):

ولد بوليب في مدينة ميجالوبوليس (Mégalopolis) إحدى مدن أركاديا (Arcadie) بجنوب بلاد اليونان، وهو من أسرة أرستقراطية، يعتبر بوليبيوس ثالث أكبر مؤرخي اليونان، يعتبر تاريخه المكتوب باليونانية أوثق مصدر عن تاريخ الجمهورية الرومانية منذ أوائل الحرب البونية الثانية حتى منتصف القرن الثاني، وبعد أن وقع رهينة في أيد الرومان سنة 166 ق.م نقل إلى روما، حيث درس هناك أخلاق الرومان ونظمهم وتعرف على أهم الشخصيات الرومانية كأمثال: أيميليوس قاهر مقدونيا، وسكيبيو قاهر أفريقيا الأصغر، وغيرهم من الشخصيات الأخرى، وهم من شجعوه على كتابة تاريخه، وقد سمحت له السلطات التنقل بحرية في أنحاء إيطاليا، وقد قام بزيارة نوميديا (الجزائر).

إن الحماية التي تلقاها بوليبيوس من طرف فابيو ماكسيموس (Fabuis Maximus) وسكيبيو الإيميلي (Scipio Emilien)، جعلته يعيش حياة رغيدة، ويحيا ثريا في المجال العلمي، فقد جمع بين التأريخ والسياسة، مما جعله ينال مكانة لدى الساسة الرومان، كما أنه أصبح مستشار سكيبيو، يتعبر كتابه المعنون بـ "التواريخ" (Histoires) أهم مصدر تاريخي له، درس فيها الفترة الواقعية ما بين (220 ق.م- 168 ق.م)، وكان غرضه من تأليف هذا الكتاب هو دراسة الطريقة والنظام السياسي اللذين مكنا روما من إحراز التقدم والتفوق، وهو يضم حوالي أربعين كتابا، فهو يؤرخ للحروب التي درات رحاها بين روما وقرطاجة.

وبحكم أنه كان مستشارا لـ "سكيبيو"؛ فقد تمكن من الاطلاع على خبايا السياسة الرومانية، ويعتبر شاهد عيان على الفترة الأخيرة لحصار قرطاجة، خلال الحرب البونية الثالثة وبالتالي شهد تدمير مدينة "ديدون"، غير أنه لم يبق من الأربعين كتابا من تاريخ بولبيوس سوى الكتب الخمسة الأولى، وبقيت مقاطع هامة من الكتاب السادس إلى الثامن عشر، لكن من الكتاب التاسع عشر لا نحتفظ إلا بمقاطع محدودة.

3.1.5 كريسبوس سالستيوس (C.Crispus Sallustius) (86 -34 ق.م):

هو مؤرخ روماني كان ينتمي هذا المؤرخ إلى أسرة من العامة، ويناصر " الحزب الديمقراطي- Populares" بحكم انتمائه الطبقي، ويؤيد "يوليوس قيصر- Iulius Caesar"، شغل عدة مناصب في الإدارة الرومانية، كتولية في سنة 46 ق.م منصب بروقنصل (أي حاكما) على مقاطعة (Africa-nova- إفريقيا الجديدة) بعد انتصار يوليوس قيصر في معركة ثابسوس سنة 46 ق.م، يحتل سالوستيوس بين الكتاب الرومان مكانة سامية تضعه في ريادة الرعيل الأول من مؤرخي روما، فالتاريخ عنده هو عمل فني بقدر ما هو عمل لاستجلاء الحقيقة، فهو يكتب بهدوء وطالما لم يحقق المستوى الذي يرضيه في كتابة النص فإنه يعيد الكتابة ويصحح أكثر من مرة، ولعل عدة مؤلفات نذكر منها:

كتاب "حرب يوغرطة – Bellum Iugurthinum " (111 -105 ق.م):

وهو كتاب نشر في سنة 41ق.م ويحتوي على مقدمة فلسفية تحدث فيها عن الأخلاق والفضيلة والطبيعة البشرية، والخير والشر والشهرة والعظمة والمجد، ثم قدم عرضا مفصلا لسيرة الملك "يوغرطة" واستيلائه على السلطة في مملكة (نوميديا)، وبحكم أنه كان حاكما على أفريقيا الجديدة، فقد كان عرضه للأحداث توثيقه ثريا ودقيقا، فقد تميز بمقدرته على بناء الحادثة التاريخية.

4.1.5 ديودور الصقلي- Diodore de Sicile (90-20 ق.م):

ألف هذا المؤرخ الإغريقي تاريخا جامعا عنوانه "المكتبة التاريخية" (General History) أو "خزانة التاريخ" في أربعين كتابا، يبدأ بالحضارات الأولى الأولى وينتهي بحملة يوليوس قيصر على جاليا (Gallia)، سنة 59 ق.م، ولم يبق من تاريخ ديودرو سوى خمسة عشر كتابا ومقتطفات من بعض الكتب التي اندثرت لدى بعض المؤلفين اللاحقين، يمدنا هذا المصدر بمعلومات عن حضور قرطاج بصقلية وعلاقتها بالإغريق وخاصة سرقوسة في فترة حكم الطاغية "أغاتوكلاس" وحملته على المجال الإفريقي لقرطاج سنة 310 ق.م.

اعتمد ديودور الصقلي في كتابة تاريخيه على النقل عن المؤرخين السابقين وتوخى المفاضلة بينهم دون تبرير منطلقاتها، كما يعكس منهجه أوجه التراجع في الكتابة التاريخية، حيث يدمج ما يسميه الأزمنة الأسطورية والمراحل التاريخية في الكتب الثلاثة الأولى من مؤلفه، ويتناول في الكتب الستة الأولى تاريخ الفترة السابقة على الحروب الطروادية مستعرضا أحوال الأقطار غير اليونانية: مصر وبلاد ما بين النهرين والهند وسكيثيا وبلاد العرب وإيثوبيا وشمال إفريقيا.

2.5- الكتب الجغرافية:

نذكر من أبرزهم الجغرافين خلال مرحلة التاريخ القديم مايلي:

1.2.5 "سترابو-Strabo" (64 ق.م– 21 أو25م):

سترابو هو مؤرخ يوناني ولد سنة 64 أو 63 ق.م، وتعد كتاباته مصدر فريدا للتأريخ لبلاد المغرب القديم، وأهم كتاب وصلنا هو كتاب "Geographia- الجغرافيا"، وهو عبارة عن موسوعة تاريخية جغرافية عن منطقة المتوسط والأقاليم المجاورة، فقد جمع لنا فيه معلومات قيمة عن مختلف الجوانب التي تخص المنطقة، منها ما تعلق بجغرافية المكان والحدود، والمجموعات البشرية التي سكنتها، وعن أسلوب معيشتهم اليومية، والأسلحة التي كان يقتنيها المحارب الليبي، وعن الثروات التي توافرت عليها المنطقة سواء منها الحيوانية أو النباتية وحتى الثروة المعدنية، كما لم يهمل الجانب التاريخي على الرغم من طغيان الميدان الجغرافي على كتاباته حول هذه المنطقة.

لقد أمدنا سترابون في الجزء السابع عشر من الكتاب بمعلومات عن موريطانيا والماسيل والمازيسيل، ثم قرطاجة وقورينة، فعن موريزيا أو موريطانيا يذكر أنها تقع في الجزء الغربي ويقطن بها الموريزيون أو الموريون حسب التسمية الرومانية والأهلية، وهم من الشعوب الليبية، ويتحدث عن تاريخ وجغرافية بعض المدن مثل: ليكسوس، سيفاكس، قرطاجة، أوتيكا، تونس، ونيابوليس واسبيس وثابسوس، منطقة السرت الصغير والسرت الكبير، قورينة... وغيرها من المدن والأقاليم المهمة.

كما يفيدنا بأهم الأطعمة التي تقتاتون عليها والألبسة الشائعة عند سكان وقبائل بلاد المغرب القديم، ويعرفنا أكثر على أساليب وأنماط عيشهم المختلفة من منطقة إلى أخرى، وبعض العادات والتقاليد التي يمارسونها في حياتهم اليومية كتضفير الشعر واللحية، والتجمل بالحلي والاعتناء بأسنانهم وأظافرهم، وبعض الطقوس التعبدية والشعائر الدينية، كما وصف وصفا دقيقا للمحارب الليبي واهم الأسلحة التي يستعملها في حروبه ومعاركه.

2.2.5 بطليموس القلوذي أو كلوديوس بطليموس (100م - 180م):

هو رياضي وعالم فلك وجغرافي ومنجم وشاعر إغريقي من أهل القرن الثاني للميلاد، ولد نحو سنة 100م وتوفّي قرب الإسكندرية نحو 180م، من أهم كتبه كتاب "الجغرافيا"، وهو معجم جغرافي وأطلس ودراسة عن علم رسم الخرائط، كتبه كلاوديوس بطليموس باللغة اليونانية في الإسكندرية سنة 150م، وقد جمع فيه كل المعلومات عن جغرافيا العالم التي كانت متوفرة في الإمبراطورية الرومانية في القرن الثاني للميلاد، ويعتبر هذا الكتاب من أهم مؤلفات بطليموس ذات القيمة التاريخية إلى جانب كتاب آخر تحت عنوان "الأطروحة الكبرى" الذي لا نملك عنه أي معلومات سوى عنوانه.

قام بطليموس بتأليف كتاب الجغرافيا اعتمادا على معاجم جغرافية للإمبراطورية الرومانية والفارسية، وقد كان لترجمته إلى اللغة العربية في القرن التاسع وإلى اللاتينية في عام 1406 تأثير كبير على المعرفة الجغرافية والطرق التقليدية لرسم الخرائط في الحضارة الإسلامية وعصر النهضة في أوروبا.